﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: 110]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقليبُ الأفئدةِ والأبصارِ منَ اللهِ في آخرِ الأمرِ مناسبٌ لانقلابِها في أوّله

بعد أن بيَّن سبحانه تقلُّبَ أقوالِهم بين الاستعداد لسبِّ اللهِ مرَّةً اعتداءً وظلمًا، والقسمِ باللهِ جهدَ أيمانهم مرَّةً أخرى؛ بيَّن هنا أنَّ ذلك ناتجٌ عنِ الأهواء، وتقلُّبِ الأفئدةِ والأبصارِ، وما ذاك إلَّا دليلٌ على عدم الإيمانِ، وعدم القناعةِ، وعدم الرُّكونِ إلى الحقِّ، فهذا حالُهم في كلِّ مرَّةٍ تُعرَضُ عليهم الآياتُ، ويُعرَضُ عليهم الإيمانُ، فيكفرون، فأنَّى لهم أن يؤمنوا إن جاءَتهم الآياتُ الَّتي اقترحوها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنُقَلِّبُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (قلب)، قَلَبَ الشَّيْءَ قلبًا: حوَّلهُ عن وجههِ[1]، وكلامٌ مقلوبٌ، وقَلَبَ رداءَهُ، وقَلَّبَهُ لوجهه: كَبَّهُ، وقَلَبَهُ ظهرًا لبطنٍ[2]، وقَلَبتُ الشَّيءَ: تصفَّحْتُهُ، فرأيْتُ داخلَهُ وباطنَهُ، وقَلَبْتُ الأمرَ ظهرًا لبطنٍ: اختبرتُه، وقلبتُ الأرضَ للزِّراعَةِ، وقلَّبْتُ بالتَّشديد في الكُلِّ مبالغةً وتكثيرًا، وفي التَّنزيل، ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التوبة: 48][3]. وفي الآية قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ يدلُّ على التَّقلُّب في الأمر، وعدمِ المقدرةِ على اتِّخاذ القرار، ثم فسَّر ذلك التَّقليبَ بالعمه.

2) ﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾: جذر الكلمةِ هو (فأَدَ)، والفؤادُ كالقلب، لكن يُقال له: فؤادٌ؛ إذا اعتُبِرَ فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوَقُّدِ، يُقال: فَأَدْتُ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة، والمُطرّزيّ، المُغرِب في ترتيب المُعرِب: (قلب).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قلب).
(3) أبو العبّاس، المصباح المنير: (قلب).

اللَّحمَ: شَوَيتُهُ، ولحمٌ فَئِيدٌ: مشويٌّ، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النَّجم: 11]، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ [الإسراء: 36]، وجمعُ الفؤادِ: أَفئِدَةٌ، وتخصيصُ الأفئدةِ تنبيهٌ على فرط تأثيرٍ له[1]، والآيةُ فيها معنى الطَّاقةِ الَّتي في الفؤاد، وهي التَّقلُّبُ والتَّبدُّلُ، قال البقاعيُّ: وخُصَّ بالذِّكرِ؛ لأنَّه ألطفُ ما في البدن، وأشدُّه تألُّمًا بأدنى شيءٍ منَ الأذى، ولأنَّه منشأُ العقائدِ الفاسدةِ، ومعدنُ حبِّ المالِ الَّذي هو منشأُ الفسادِ والضَّلالِ، وعنه تصدرُ الأفعالُ القبيحةُ[2].

3) ﴿مَرَّةٍ﴾: جذر الكلمةِ هو (مرر)؛ وقولهم: مَرَّةً ومرَّتين، كفَعْلَة وفَعْلَتين، وذلك لجزءٍ منَ الزَّمان[3]، قال: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: 56]، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التَّوبة: 13]، ومثلُهُ في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

4) ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (طغو وطغي)؛ الطُّغْيان: الواوُ لغةٌ فيه، وقد طَغَوْتُ وطَغَيْتُ، والاسم الطَّغْوَى، وكلُّ شيءٍ يجاوزُ القدرَ، فقد طَغَى مثلَ ما طَغَى الماءُ على قَوم نُوحٍ، وطغى الماءُ: ارتفع وعلا، وكَمَا طغتِ الصَّيحةُ على ثَمُودَ، والطَّاغيةُ: الجبَّارُ العنيدُ[4]، والطُّغيانُ كل ما جاوز القدْرَ، وارتَفَعَ، وغَلَا في الكفرِ[5].

5) ﴿يَعْمَهُونَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عمه)؛ عَمِهَ يَعْمَهُ عَمَهًا، فهو عَمِهٌ، وهم عَمِهُونَ؛ إذا تَرَدُّوا في الضَّلالةِ[6]، العمَهُ: التَّردُّدُ في الضَّلالةِ، والتَّحيُّرُ في منازعة أو طريق. وقال ثعلب: هو ألَّا يعرفَ الحجَّة، وقال اللِّحْيانيُّ: وهو تردُّدُهُ، لا يدري أين يتوجَّهُ. ورجلٌ عمهٌ وعامهٌ، والجمع عمهون[7]، وفلانٌ في عمهٍ من أمرِهِ، وهو التَّردُّدُ والتَّحيُّرُ، والأرض العَمْهاءُ لا أماراتِ لها[8]. و"المعنى: يتردَّدونَ ويَتَحَيَّرونَ، أو يَعْمَوْنَ عَن رُشْدهم، أو يَرْكبون رؤوسَهم ولا يُبْصرون"[9].

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المُفردات: (فأد).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/248.
(3) الأصفهانّي، المُفردات: (مرر).
(4) الفراهيديّ، العين، وابن سيده، المُحكم: (طغي).
(5) ابن سيده، المُحكم: (طغي).
(6) الفراهيديّ، العين: (عمه).
(7) ابن سيده، المُحكم: (عمه).
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عمه).
(9) أبو حيان، البحر المحيط: 1/116.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُـقـلِّـبُ الـلـهُ أفئدةَ المنكِرين وأبصارَهم عنِ الإيمان بإزعاجِ نفوسِهم همًّا وغمًّا

قولُهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ أخبرَ تعالى أنَّه يقلِّبُ أفئدةَ المشركين وأبصارَهم، وهي إشارةٌ إلى الحيرةِ والتَّردُّد، وصرفِ الشَّيءِ عن وجههِ، والمعنى: أنَّه تعالى يحوِّلُهم عنِ الهدى، ويتركُهم في الضَّلَال والكُفر ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقت أن جاءَهم هدى الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: 125]، ويؤكِّدُ هذا المعنى آخرُ الآيةِ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي: ونتركهم في تغمُّطهم في الشَّرِّ والإفراط فيه يتحيَّرون، وهذا كلُّه إخبارٌ منَ اللهِ تعالى بفعلهِ بهم في الدُّنيا[1]، فيُقلِّبُ اللهُ أفئدةَ هؤلاء وأبصارَهم عنِ الإيمان وعنِ الآيات، كما لم يؤمنوا بما رأوا منَ الآيات، فيكون تَقليبُها بإزعاجِ نفوسِهم همًّا وغمًّا[2].

وهناك قولٌ آخرُ، وهو أنَّ التَّقليبَ على اعتبار أن لو رُدُّوا منَ الآخرة إلى الدُّنيا، فلا يؤمنون، كما فُعِلَ بهم ذلك، فلم يؤمنوا في الدُّنيا، ونظيرُ ذلك قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28][3]، والصَّحيحُ أنَّ القولَ الأوَّلَ هو الأرجحُ للحاق الآية، وأمَّا القولُ الآخرُ؛ فهو من حيثُ الجملةُ صَحيحٌ، لكن لا دليلَ عليه إلَّا بتقديرٍ مُعتسِفٍ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ استعمالِ الواوِ في قولِه: ﴿وَنُقَلِّبُ﴾:

بيانُ تفصيلِ الآياتِ تعريضٌ بالَّذين لا يؤمنون

يجوز أن تكونَ جملةُ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ مستأنفةً، والواوُ للاستئنافِ أو أن تكون معطوفةً على جملة: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/617.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 1/365.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/44.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/441.

داخلٌ في حكم ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، مقيَّدٌ بما قُيِّدَ بهِ، أي: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أنَّا نقلِّب أفئدتَهم عن إدراك الحقِّ، فلا يفقهونَهُ، وأبصارَهم عن اجتلائهِ، فلا يُبصرونَهُ[1].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ التَّقليبِ بصيغةِ المضارعِ:

تقليبُ الأفئدةِ إرباكٌ للنَّفس، فلا طمأنينةَ لها ولا قرارَ

المضارعُ في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ﴾ يفيدُ التَّجدُّدَ مع الزَّمن، فيكون تقليبُ أفئدتهم مُتجدِّدًا مُتنوِّعًا، فلا يستقرُّ قلبُهم على إيمانٍ، مهما جاءَتهم الآياتُ، ومهما أقنعتهم الحججُ، فهم في تردُّدٍ دائم، ويفسِّرُ ذلك التَّقليبُ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: 83] فلا يهدأُ لهم بالٌ، ولا يشعرون براحةٍ أو طمأنينةٍ قطعًا، ولا يُعبِّرُ عن هذا المعنى مثلُ مفردةِ التَّقليبِ.

بلاغةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾:

إطلاقُ الأفئدةِ والأبصارِ وإرادةُ الأبدانِ كلِّها باعتبارِ أوضح ما في الأبدان تقليبًا

معنى تقليب القلبِ والبصرِ، ما ينشأُ عنِ القلبِ والبصرِ منَ الدَّواعي إلى الحيرةِ والضَّلالِ؛ لأنَّ القلبَ والبصرَ يتقلَّبان بأنفسهما، فنسبةُ التَّقليب إليهما مجازٌ، بإطلاقِ البعض وإرادةِ الكلِّ؛ لأنَّ التَّقليبَ يبلغُ الأبدانَ كلَّها؛ لهذا جاءَتِ الآيةُ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي: يتقلَّبون في النَّظر والرَّأي، فلا يستقرُّون على رأي ثابتٍ، قال النِّيسابوريُّ: معنى تقليب الأفئدةِ والأبصارِ هو أنَّهم إذا جاءَتهم الآياتُ القاهرةُ الَّتي اقترحوها؛ عرفوا كيفيَّةَ دلالتِها على صدقِ الرَّسولِ إلَّا أنَّه تعالى إذا قلَّبَ قلوبَهم وأبصارَهم عن ذلك الوجهِ الصَّحيحِ بقوا على الكفر، ولم ينتفعوا بتلكَ الآياتِ[2].

نكتةُ تقديمِ الأفئدةِ على الأبصارِ:

قُدِّمتِ الأفئدةُ على الأبصارِ في قولِه تعالى: ﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ لأنَّ الأفئدةَ: هي المقصودُ الفكريُّ الحقيقيُّ للتَّقلُّب، والأبصارَ: هي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/173.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/144.

الحاسَّةُ الَّتي يظهرُ تقلُّبُها للنَّاظر، فإنَّ الأبصارَ والأفئدةَ تتقلَّبُ معًا، إحداها باطنٌ لا يُرى، وإنَّما تُرى آثارُه، والأخرى تُرَى، وتُرَى آثارُها، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [الأحزاب: 19]، فقدَّم المقصودَ بالهدايةِ، وهي الأفئدةُ، على المعين على الهدايةِ، وهي الأبصارُ، من باب تقديمِ الغاياتِ على الوسائلِ، فقُدِّمَتِ الأفئدةُ؛ لأنَّ موضعَ الدَّواعي والصَّوارف هو القلبُ، فإذا حصلتِ الدَّاعيةُ في القلب انصرفَ البصرُ إليه شاء أم أبى، وإذا حصلتِ الصَّوارفُ في القلب؛ انصرفَ البصرُ عنه، وإن كان تَحَدُّقُ النَّظَرِ إليه ظاهرًا[1].

تقديمُ الغاياتِ (الأفئدة) على وسائلِها (الأبصار)

توجيهُ تخصيص الفؤاد والبصر بالذِّكر:

خُصَّ من أجسادهم أفئدتُهم وأبصارُهم، في قولِه تعالى: ﴿أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾؛ لأنَّها معدِنُ إعراضِهم عنِ العِبرةِ بالآيات، كقوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: 116]، أي: سحروا النَّاس بما تُخيِّله لهم أعينُهم[2].

الأفئدةُ والأبصارُ هي آلةُ الإعراضِ

معنى الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾:

الكافُ في قوله: ﴿كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ تحتمل معنيين:

الأول: للتَّعليلِ، أي: كما لم يؤمنوا بهِ أوَّلَ مرَّةٍ نجازيهم بأن نُقلِّبَ أفئدتَهم عنِ الهدى، ونطبعَ على قلوبهم، فكأنَّه قال: ونحنُ نُقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم جزاءً لما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ بما دعوا إليه منَ الشَّرعِ، وهو معنى التَّعليل[3]، أي: لأنَّهم لم يؤمنوا بهِ أوَّلَ مرَّةٍ فنقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فتكونُ الكافُ للتَّعليل.

علّة التَّقليبِ لعدم الإيمان ابتداءً وتشبيه عدمِ إيمانهم ثاني مرَّةٍ بعدمِ إيمانِهم أوَّل مرَّةٍ

الثاني: للتَّشبيهِ، ففي الكلام حذفٌ تقديرهُ: فلا يؤمنون به

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/617.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/441.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/332.

ثاني مرَّةٍ، كما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ[1]، والمعنى: ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فلا يؤمنون بالآيةِ الَّتي تجيئهم، مثلما لم يؤمنوا بالقرآنِ من قبلُ، فتقليبُ أفئدتِهم وأبصارِهم على هذا المعنى يحصلُ في الدُّنيا، وهو الخذلانُ، وعلى هذا الوجهِ يكون قولُه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ مُعتَرِضًا بالعطف بين الحالِ وصاحبِها، ويجوزُ أن يجعلَ التَّشبيهَ للتَّقليب فيكون حالًا منَ الضَّمير في (نقلِّب)، أي: نقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم عن فطرة الأفئدةِ والأبصارِ، كما قلَّبناها، فلم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ، إذ جمحُوا عنِ الإيمان أوَّلَ ما دعاهم الرَّسولُ ﷺ ويصيرُ هذا التَّشبيهُ في قوَّةِ البيانِ للتَّقليب المجعولِ حالًا من انتفاء إيمانِهم بأنَّ سببَ صدورِهم عنِ الإيمانِ لا يزالُ قائمًا؛ لأنَّ اللَّهَ حرمَهم إصلاحَ قلوبِهم[2].

نكتةُ إيثارِ النَّفي على الإثباتِ:

جاء قولُه: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ نفيًا لا إثباتًا، فلم يقُل: (كما كفروا به)، لما في التَّعبير من ذكرِ الإيمانِ ونفيه مُناسَبَة لقولهم: (إنَّهم سيؤمنون بالآية المقترحةِ من عندهم؛ إنْ جاءَت)، فحقَّقَ هذا الأسلوبُ طباقَ السَّلبِ بين قولهم: ﴿لَّئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ وقوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾، وفائدةُ هذا الطِّباقِ بيانُ عظيمِ شأنِ ذلك التَّقلُّبِ في أفئدتِهم، وأنَّهم إنْ آمنوا لحظةَ مجيءِ الآيةِ؛ فسوف يرتدُّون عن إيمانهم، ويرجعون إلى كفرِهم بعد ذلك.

طباقُ السَّلبِ في إثباتِ الإيمانِ زَعمًا، وفي نَفْيِهِ تحقيقًا

بلاغةُ إضمارِ التَّصريحِ بالمُؤمَنِ بِهِ:

في قولِه تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أضمرَ التَّصريحَ بالقرآنِ، وهو المؤمَنُ بِهِ؛ لأنَّه معلومٌ غايةَ العلم، فلا يخفى على أحدٍ، ولأنَّهم التفتوا عنِ الإيمانِ به إلى الإيمانِ بالآيةِ المقترَحةِ من عندهم، فأُنكِرَ

القرآنُ ذو منزلةٍ سامقةٍ يُعرفُ بها بلمحِ الإشارةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/618، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/441.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/442.

عليهم ذلك بعدم ذكرِ ما كان ينبغي أن يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ، لِمَا في القرآن من دواعي الإيمان به أوَّلَ سماعِه، فهو الحقُّ بعينه.

براعةُ ذكرِ قيد ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

ذُكِر قيدُ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ولو حُذِف، فقال: (كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَنَذَرُهُمْ)؛ لصحَّ المعنى، وفائدةُ ذكرِ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الدَّلالةُ على توجُّههم قبلَ سماعِ القرآنِ إلى الإنكارِ والإعراضِ، ففيها إشارةٌ إلى أنَّهم قد بيَّتوا الإنكارَ، فلمَّا سمعوا القرآنَ أوَّلَ مرَّةٍ؛ أنكروه لا لعدم تصديقهم، بل لكفرِهم وإنكارِهِمْ، وأتى بأوَّلِ مرَّةٍ للتَّذكيرِ بأوَّلِ مرَّةٍ يكفرون فيها؛ استحضارًا للحال وتشنيعًا عليهم، وفي ذكر أوَّلِ مرَّةٍ إيماءٌ إلى الثَّانية، وهي مجيءُ الآياتِ على اقتراحهم، كما أنَّ في قوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كنايةً عنِ العودة بالإيمان إلى البداية، وهذا هو التَّقلُّبُ الَّذي يصيبُ أفئدةَ هؤلاء المُنكِرين.

مَـن أظلَـمَت بدايتُه؛ أظلَمَت نهايتُه

لطيفُ استعمالِ مفردةِ ﴿مَرَّةٍ﴾:

يُلحَظُ في المرَّةِ معنى المرارةِ والسُّرعةِ، ففيها إشارةٌ إلى مرارةِ كفرِهم، وسرعةِ مرورِ الزَّمانِ عليهم، وما ذاك إلَّا لِتَبْييتِهم قضيَّةَ الكفرِ والإنكارِ قبلَ سماعِ القرآنِ، ورؤيةِ الآياتِ، ودلالتِها على التَّعدُّد بعد ذلك، فأوَّلُ مرَّةٍ يعني: أنَّ هناك مرَّاتٍ سيعودون بها إلى كفرهم أو عدم إيمانهم، وهذا هو التَّردُّدُ بعينه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التَّوبة: 45].

تـجـمَـعُ لفظةُ (مـرّة) بين مرارةِ الكفر وسرعتِه

بلاغةُ عطفِ جملةِ ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ على السَّابقة:

عطفَ قولَه: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ على قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ من باب تكميلِ المعنى وتتميمِه، فذكر في الأولى حالَهم، وذكرَ في الثَّانية مآلَهم، فهم في كُلٍّ من حالِهم ومآلِهم في تقلُّبٍ وعدم استقرارٍ، وارتيابٍ، وما ذاك إلَّا لأنَّهم اختاروا عدمَ الإيمانِ، فتركهم اللهُ تعالى لاختيارهم.

بـين التَّقلـيبِ والـتَّركِ يكون حـالُ المنكِرين ومآلُهم

إيثارُ استعمالِ مفردةِ ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بصيغة المضارع:

مَـن تـركَ الله قـاصـدًا؛ تركَه الله في طغيَانِه عامهًا

في الآية تناسُبٌ وانسجامٌ بين قولِه: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ والمعطُوفِ عليه: ﴿وَنُقَلِّبُ﴾، فمعنى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾، أي: نترُكُهَا على انقلابِهَا الَّذي خُلِقَتْ عليه، فكانَت مَملُوءَةً طُغيَانًا ومُكابَرَةً للحَقِّ، وكَانت تَصرِفُ أَبصارَهُمْ عَنِ النَّظَرِ والاستِدلالِ، ولذَلكَ أضافَ الطُّغيانَ إلى ضَميرِهِم؛ للدَّلالَةِ على تأصُّلِهِ فيهِم، ونَشأتِهِم عليه، وأنَّهُم حُرِمُوا لِينَ الأفئِدَةِ الَّذي تنشأُ عنه الخَشيةُ والذِّكرَى، ومَجيءُ ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بِصيغَةِ المُضَارِعِ فيه مِن تجدُّدِ ذلِكَ الأمر عَليهِم، فإنَّهُ سبحانه في جَميعِ أحوالِهِم قَد تَرَكَهُم على نَهجِهِم في التَّقَلُّبِ والطُّغيَانِ[1].

نكتةُ اقترانِ لفظِ الأفئدةِ بلفظِ الأبصار:

الأفئدةُ والأبصارُ منظومةٌ معلوماتيَّةٌ مهمَّةٌ لدى الإنسان، وهي محورُها

اقترن لفظُ البصرِ بلفظِ القلبِ أو الفؤادِ كثيرًا في القرآن الكريم كما في قوله هنا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾، والظَّاهرُ أنَّ وجهَ الجمعِ بين الأفئدة والأبصار وعدم الاستغناء بالأفئدةِ عنِ الأبصار؛ أنَّ الأفئدةَ تختصُّ بإدراك الآياتِ العقليَّةِ المحضةِ، مثل: آيةِ الأُمِّيَّةِ وآيةِ الإعجازِ، ولمّا لم تكفهمُ الآياتُ العقليَّةُ، ولم ينتفعوا بأفئدتهم؛ لأنَّها مقلَّبةٌ عنِ الفطرة، وسألوا آياتٍ مرئيَّةً مُبصِرَةً، كأن يرقى في السَّماء، ويُنزِل عليهم كتابًا في قرطاس، أخبر اللهُ رسولَهُ ﷺ والمسلمين بأنَّهم لو جاءَتهم آيةٌ مُبصِرَةٌ؛ لما آمنوا، لأنَّ أبصارَهم مُقلَّبَةٌ أيضًا مثل تقليب عقولهم[2].

بلاغةُ المجازِ في استعمال حرف ﴿فِي﴾:

الظَّرفيَّةُ في قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ مجازيَّةٌ للدَّلالة على إحاطةِ الطُّغيانِ بهم، أي: بقلوبِهم. وجملة: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ معطوفة على ﴿وَنُقَلِّبُ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/444.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/443.

وجملة: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حالٌ منَ الضَّمير المنصوب في قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾. وعطفُ ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ داخلٌ في حكم الاستفهام الإنكاريِّ، مقيدٌ بما قُيِّد به، مبيِّنٌ لما هو المرادُ بتقليب الأفئدةِ[1]، فيكون تَقليبُ الأبصارِ، والعَمَهُ في الطُّغيان معنيين متناسبين متكاملين.

التَّقليبُ والعَمَهُ متناسبان لدلالتهما على التَّردُّدِ في الضَّلالة، والتَّحيُّر في المنازعة

دلالةُ المُضارع على التَّجدُّد في الأفعال: (نُقلِّبُ) و(نَذَرُ) و(يَعمَهُونَ):

وردتِ الأفعالُ في هذه الآية جميعُها مضارعةً؛ لتدلَّ على التَّجدُّد، وسرعة التَّبدُّلِ والتَّقلُّبِ في الأبصارِ والأفئدةِ، ثمَّ ما يتبعها من تجدُّدِ العمهِ في القرار والاختيار، وما ذاك إلَّا لأنَّ إرادةَ الله تشاءُ تقليبَ تلك الأبصار والأفئدةِ، وقدَّرَت عليهم الطُّغيانَ والعَمَهَ، وما ذاك إلَّا لاستحقاقِهم؛ لما اقترفت نفوسُهُم وقلوبُهُم وعقولُهُم.

تقليبُ الأبصارِ والأفئدةِ مُتكرِّرٌ عند المُعارضين، وهو امتدادٌ طبيعيٌّ لعمهِ عقولِهم

دلالةُ إضافةِ الطُّغيانِ إلى ضمير المشركين في قوله تعالى: ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾:

إضافةُ الطُّغيانِ إلى ضميرِ المشركين (هم) يدلُّ على أنَّهم قد اختاروا الطُّغيانَ، وركنوا إليه، وأنَّه قد بات جزءًا من تفكيرهم، وأسلوبًا في حياتِهم، فاستحقُّوا بذلك قولَ الله فيهم: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ فيكون ذلك الطَّغيانُ هو الرَّائدُ لأعمالهم، المُوَجِّهُ لها، فهم فيه يعمهونَ، فلا يبصرونَ الحقَّ، ولا يتَّبعونه.

اختار المُشركون الطُّغيانَ، وركنوا إليه، فباتَ جزءًا من كيانِهم

العلاقةُ بين الطُّغيان والعمهِ، وأثرها في تصوير تمكُّن ضلالِ المشركين:

العَمَهُ: التَّرَدُّدُ في الضَّلَالَة، والتَّحَيُّرُ في مُنَازَعَةٍ أو طَريقٍ، وقالَ ثَعلَبٌ: هو ألَّا يَعرِفَ الحُجَّةَ، وقالَ اللِّحيَانيُّ: هو تَرَدُّدُهُ، لا يدري أينَ يَتَوَجَّهُ؟[2] وفي الآية: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

الطُّغيانُ أثرُ كبرِ النَّفسِ، والعمهُ أثرُ ضياعِ العَقلِ

والطُّغيانُ سَبَبُ العَمَهِ، لِمَا يُحدِثُهُ الطُّغيَانُ من إطبَاقِ العَقلِ، والإصرارِ على الباطِلِ، وعَدَمِ التَّعَقُّلِ، فإذا اجتمع طغيانُ النَّفسِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/173.
(2) ابن سيده، المُحكم: (عمه).

وعمهُ الفكرِ؛ أصبحَ الإنسانُ في ضلالٍ مُبينٍ، لا ينكشفُ عنه إلَّا باللُّجوء إلى ذي العزَّةِ والملكوتِ.

تَقديمُ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾:

(الـطُّـغـيَـان) سببٌ أصيلٌ في الضَّلالِ والعمهِ

أصلُ الكلام: (يعمهون في طغيانهم)، لكنَّه قدَّمَ الطُّغيانَ على العَمَهِ؛ لبيان التَّسلسُلِ في النَّشأة والسَّبَبيَّة، فالطُّغيانُ سببٌ في عموم الأخطاءِ، والقراراتِ الظَّالمةِ، الَّتي يمكن أن يقعَ فيها الإنسانُ نتيجةَ طُغيانِه، وتجاوزِه الحدَّ، وقال السُّيوطيُّ: يتحيَّرون في ضلالهم[1]، فالطُّغيانُ هو سببٌ أصيلٌ في التَّمادي في الباطل، فقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ لبيان خطورةِ الطُّغيانِ، وأنَّ على الإنسان أن يعالجَ نفسَه أوَّلًا من طغيانِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفؤادُ والقلبُ:

القلبُ هو الاسمُ العلمُ الجامعُ لمعانيهِ

يعبَّرُ بالقلبِ عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به منَ الرُّوحِ والعلمِ والشَّجاعةِ وغير ذلك، وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، أي: الأرواح، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، أي: علم وفهم، وقوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: 10]، أي: تَثْبُتَ به شجاعتُكُم، ويَزولَ خوفُكُم، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 53]، أي: أجلبُ للعفَّة، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 4][2]، فورد القلبُ عمومًا للمؤمنين لإرادة الأمورِ العاليةِ كالعلمِ والرُّوحِ والشَّجاعةِ والتَّثبيتِ على الحقِّ.

الـفُـؤادُ حـالـةُ الـتَّـوقُّـدِ من أحوالِ القلبِ

والفؤادُ كالقلبِ، لكن يُقال لهُ: فؤادٌ إذا اعتُبر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوقُّدِ، يُقال: فَأَدْتُ اللَّحمَ: شَوَيْتُهُ، ولحم فَئِيدٌ: مشويٌّ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، وتخصيصُ الأفئدةِ تنبيهٌ على

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 2/587.
(2) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (فأد).

فرط تأثيرٍ له[1]، والآيةُ فيها معنى الطَّاقةِ الَّتي في الفؤاد، وهي التَّقلُّبُ والتَّبدُّلُ.

قال البقاعيُّ: وخُصَّ بالذِّكر لأنَّهُ منشأُ العقائدِ الفاسدةِ، ومعدنُ حبِّ المالِ الَّذي هو منشأُ الفسادِ والضَّلالِ، وعنه تصدرُ الأفعالُ القبيحةُ[2]، ومن هنا فقد ذُكِرَ الفؤادُ في الآية دون القلبِ؛ لأنَّ السِّياقَ في مَعرِضِ الحديثِ عن أفئدةِ المشركين.

العمهُ والحيرةُ:

العمهُ في البصيرةِ، كالعمى في البصر، ورجل عمَهٌ عامِهٌ، أي: يتردَّدُ مُتحيِّرًا لا يهتدي لطريقِه ومَذهَبِه، والجمع عَمِهون وعُمَّهٌ، وقد عَمِه؛ إذا حادَ عنِ الحقِّ، والعمَهُ في الرَّأي، والعمى في البصَرِ، قال أبو منصور: ويكون العمى عمى القلبِ، يُقال: رجلٌ عَمٍ؛ إذا كان لا يُبصِرُ بقلبه، وأرض عَمهاءُ: لا أعلامَ بها، وذهبت إبلُهُ العُمَّهَى؛ إذا لم يَدْرِ أين ذهبت؟ والعُمَّيْهَى مثلُهُ[3].

العمهُ في الرَّأي، والعمى في البصر

يَذَرُ ويترُكُ:

يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذفُهُ لقلَّةِ اعتدادِه به، ولم يُستعمَلْ ماضيه، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: 127]، ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: 112]، ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: 278] إلى أمثالِه، وتخصيصِه في قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ [البقرة: 234]، ولم يقُل: يتركون، ويخلِّفون، والوَذَرَةُ: قِطْعةٌ منَ اللَّحم، وتسميتها بذلك لقلَّةِ الاعتدادِ بها نحو قولهم فيما لا يعتدُّ بهِ: هو لحمٌ على وضمٍ[4].

يـذرُ الشَّيءَ: يقذفُه لقلَّةِ اعتدادِهِ به

وتركَ الشَّيءَ: رفَضَه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمِنَ

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (قلب).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/248.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(4) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (وذر).

يـكـون الـتَّرْكُ لـلـشَّيءِ رفْضَـهُ قصدًا أو قهرًا

الأوَّل: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، وقوله: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدّخان: 24]، ومِنَ الثَّاني: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ﴾ [الدّخان: 25]، ومنه: تَرِكَةُ فلانٍ، لما يخلِّفُهُ بعد موتِهِ، وقد يُقال في كُلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ مَا: تَرَكْتُهُ كذا، أو يَجري مَجرَى جعلْتُهُ كذا، نحو: تَرَكْتُ فلانًا وحيدًا، والتَّرِيكَةُ أصلُهُ: البيضُ المتروكُ في مفازَتِهِ[1].

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (ترك).

الجُزْءُ الثَّامِنُ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»